استشراف المستقبل ونهاية التأريخ على ضوء السنن التاريخية

أ.م.سيد خليل إبراهيم الشوكي

هذه الدراسة نشرتها مجلة المصباح التابعة للعتبة الحسينية في عدد(١٦) لسنة (٢٠١٣) تحدّثت فيها عن النهاية الحتمية للحضارة الغربية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية وما تؤول إليه من سقوط تدريجي يبتدئ بثورة أصحاب البشرة السوداء الذين يعانون الظلم والتمييز العنصري، وهي نقطة جوهرية في سلّم الصراع من أجل الحرية التي تنشدها الإنسانيّة جمعاء، وأنَّ الناس سواسية كأسنان المشط، وأنَّ اللون عرض زائل، والماهية أصل ثابت لكل أنواع الجنس البشري، بغض النظر عن لون البشرة.

هذا الموضوع أوجزه في هذه الورقة البحثية بمناسبة ماتحقق اليوم من أنجاز للبشرة السوداء على الصعيد العالمي، قد يفتح الباب على مصراعيه أمام الثورات المتداعية في كل أرجاء العالم بحثاً عن الحرية الحقيقية التي زيف مدّعاها من قبل الأيدلوجيات الغربية، وهي تمارس أبشع أنواع التميّز العرقي مع أبناء الشعب الواحد، وقد ذكرت مجموعة من السن الكونية التي تتحدث عن القوانين الإلهية التي تجري في الطبيعة وأنها قوانين لاتختلف ولا تتخلف، وأنها ربانية المصدر.

ومن أهم تلك السننّ هي:

١- الدورة الحضارية:

كل المؤشرات والمقاييس المادية تثبت أنَّ لكل حضارة عمراً من الزمن لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، كما أنَّ البشر يموت كذلك الحضارة هي الأخرى يعتريها شبح الموت، قال تعالى:﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾.

فالأمم والشعوب مثل الأفراد، لها حياة وموت ، وكما أن الإنسان يفنى ويحل محلّه أخر، كذلك الأمم والشعوب تندثر وينمحي أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها أمم أخرى، وإن سنّة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والأمم أيضاً، مع فارق وهو أن موت الافراد قد يكون موت حتمي وهو بلوغ الأجل عن عمر معيّن، أو موت خرمي وهو الحادث العرضي من مرض أو غرق أو حرق وهكذا،

أمّا الشعوب والأمم فيكون - في الغالب - على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور والفساد الاخلاقي.

إن دراسة زوال مدنيات كبرى، مثل حضارة بابل، وفراعنة مصر، وقوم سبأ، والكلدانيين والآشوريين، ومسلمي الأندلس وأمثالها، توضح الحقيقة التالية، وهي أنه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات والحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ساعة واحدة . ويجب الالتفات إلى أن «الساعة » في اللغة تعني أصغر وحدة زمنية، فربما تكون بمعنى لحظة، وربما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، وإن كانت الساعة تعني في عرفنا الحاضر اليوم مدة واحد من أربع وعشرين.

فعلى ضوء هذه السنّن والقوانين الإلهية نثبت وبجدارة أنَّ شبح الموت قد خيِّم على الحضارة الغربية، ممّا يمهّد لبروز قوى وحضارات أخرى تتقدّمها الحضارة الإسلامية، وهذه القراءات تم استنباطها نتيجة مؤشرّات واقعيّة معاصرة ، ومؤشرّات تاريخية تتمثّل في استكمال الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية للدورة الحضاريّة والتي تمتّد بناءاً على استقراء شبه كامل لمدّة خمسة قرون — حيث بدأت النهضة الغربية وتحديداً قبل خمس قرون ومازالت مستمرة إلى يومنا هذا -، وإذا كانت الولايات المتحدّة الأمريكية تعتمد على اختلال توازن القوى لصالحها فإنّ السقوط الحضاري يكمن دائماً في أوج القوّة الحضاريّة.

يقول (شبنغلر) ـ وهو من كبار الفلاسفة المعاصرين الألمان وأحد المتخصصين في دراسات الحضارة ـ: «إن دورة أية حضارة لا يمكن أن تتعدى الألف عام ومعنى ذلك أنَّ الحضارة الغربية كانت قد بدأت مرحلة الأفول الروحي بدخولها مرحلة الركود والراحة المادية والتي أطلق عليها (بالمدنية) وهي المرحلة التي تسبق انهيار الحضارة وزوالها، بهذا فالحضارة هي العطاء والازدهار الروحي حيث تمر في دورها الأول، أما المدنية فهي مرحلة الشيخوخة والهرم وفقدان الحضارة مناعتها ومقوماتها الروحية وقيمها الأخلاقية).

وبهذا يعد (الجانب المعنوي) جوهر الحضارة وروحها وحافظ كيانها ولا يبقى (للحداثة) دور أساس منها، بل يعتبره سبباً لتضعيف مناعتها مع غياب الجانب المعنوي.

٢- البشرّة السوداء:

لازالت الحقيقة تصطدم بجدار التميز العنصري في امريكا، فالبشرّة السوداء هي صنع إلهي كوني إلى جانب البشرّة البيضاء، واللون عرض زائل يفنى وتبقى والجنس البشري ماهيته واحدة، وهي حقيقة أقرّها القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وبالرغم من القرارات الكثيرة التي تصدّر عن منظمة حقوق الإنسان، والتي تنبذ التمييز العنصري نراها اليوم وفي ظل تلك الهجمات العنيفة على تلك البشرة السوداء تثبت وبقوة أنها فقرات خاوية عن الارتقاء إلى سلّم التنفيذ، فالصراع الدائر في الولايات الامريكية ينم عن إرهاب حقيقي لايختلف ولا يتخلف عن الإرهاب الداعشي تجاه أصحاب اللون الأسود، فمازال السود في القارة المغتصبة ممنوعين من العديد من الحقوق السياسية، ناهيك عن الاعتداءات اليومية التي يتعرضون لها من قبل المنظمات العنصرية التي تطالب بضرورة إخراج هؤلاء من أمريكا وإرجاعهم إلى إفريقيا .

وما تلك الاعتداءات اليومية التي تحصل من رجال الأمن على أصحاب البشرة السوداء الذي فجرّ عشرات التظاهرات الغاضبة على الإدارة الأمريكية وطريقة تعاملها معهم ، هذا التمزق والصراع العرقي واللوني مرشح لمزيد من الاتساع الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى تقسيم هذه الولايات وتفرّقها وأنهيار ذلك الطاغوت الجاثم وتحوله إلى حشرة صغيرة تداس في يوم تحت الأقدام .

٣- أمريكا دولة الجرائم:

من يتصفح أروقة الجريمة في العالم، يجد أن الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر وبجدارة هذا النوع الذي يعد بحق برهان صدق على تفشي الفساد وانتشار الظلم والفقر وعلى الطبقية في هذا المجتمع المخملي .

فبالكاد أصبحت أمريكا الداعية إلى حقوق الإنسان وسيادة النظم الديمقراطية، أول بلد تنتشر فيه الجريمة ، دون الوقوف بحزم للحد منها، وما كل هذه الشعارات المعسولة التي تنادي بها، معزوفة قديمة ليس إلا؟

فعوامل الفقر والطبقية ساهمت إلى حد كبير في إحداث ثورة اجتماعية كما حدث في فرنسا أيام الثورة الفرنسية.

يقول نيتشه:« وقد تتلاقى صيحات المستضعفين في أمريكا وأوروبا والعالم الثالث أيضاً وهو مؤشّر على الفصام النكد بين القيادة السياسية في أمريكا والمدعومة من قبل رجال الأعمال وبين الطبقات المسحوقة . وإذا غالطت أمريكا الرأي العام لديها بتوجيه أنظارهم إلى الساحة السياسية الدولية فسوف يأتي اليوم الذي يلتفت فيه المسحوقون في أمريكا إلى واقعهم ويحتجون عليه بقوة»

٤- كوارث غير منتظرة:

يؤكّد خبراء الزلازل والبراكين أنّ الولايات المتحدة الأمريكية ستتعرّض في السنوات المقبلة إلى بعض الكوارث الطبيعية إذ أنّها تقع في خط طول ٤٠ والأقاليم الواقعة في هذا الخط ستشهد نشاطاً زلزاليّاً رهيباً في السنوات المقبلة . وإذا أضفنا إلى هذه الكوارث المحتملة التحدّي الواضح للسنن الإلهية الكونيّة فإنّ أمريكا ستكون مرشحّة إلى ضربات السماء أيضاً، ولا يمكننا استبعاد الوعود الربانية القاضيّة بنهاية الظلم والاستبداد سواء بسنن الطبيعة أو غيرها من العوامل ، ويبيّن القرآن الكريم في قصص الماضين أنّ هناك علاقة طرديّة بين تفاقم الظلم والسقوط الحضاري الأكيد ، وكثيراً ما يربط القرآن الكريم بين ظلم الأمراء وسقوط الأمم .

فالإنسان يمكنه أن لا يصلّي لأنّ وجوب الصلاة حكمٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّاً، يمكنه أن يشرب الخمر، لأنّ حرمة شرب الخمر قانونٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّاً، لكنّه لا يمكنه أن يتحدّى القوانين الكونيّة والسُنن الموضوعيّة، مثلاً لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي إذا توفّرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدّى الغليان، أن يؤخّر الغليان لحظةً عن موعده المعيّن؛ لأنّ هذا قانونٌ، والقانون صارمٌ، والصرامة تأبى التحدّي.

ولكن مسألة التحدي يمكن تحجيمها بحسب القوة والتطرّف ضد القانون التكويني المرتبط بالقانون التشريعي الإلهي الذي يتحكّم بالوجود الإنساني، فكلما تمادى الإنسان في غيه، ووقف نداً في قبال القانون التكويني ،كان الرّد سريعاً وماحقاً من قبل السنن الإلهية ضد التحدّي، فينهيه ويزيله من الوجود.

مثلاً قوم لوط، قد تحدّوا اتجاهاً موضوعيّاً له آثاراً تكوينية، فالطبيعة الإنسانية جُبلت على الأنس والانسجام الروحي والفسلجي بين الذكر والأنثى، وإدامة النوع الإنساني عن طريق هذا الاتصال، ضمن إطار من أُطر النكاح الشرعي الذي أقرته كتب السماء.

هذا التحدّي لهذه السنّة، يؤدّي إلى أن يتحطّم المتحدّى؛ فالمجتمع الذي يتحدّى هذه السنّة يكتب بنفسه على نفسه الفناءَ ؛ لأنّه يتحدّى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعيّ، وتلك الألوان من الشذوذ تؤدّي إلى فناء المجتمع وخرابه.

وسوف لن يمر وقت طويل إلا ونرى سقوطها المدويّ على يد عباد الله المؤمنين بقيادة القائد الرباني الموعود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

إذن فلابدّ - بحسب التخطيط الإلهي - من إقامة العدل، والسلام في العالم، بعد انتشار الظلم والجور والفساد في ربوع الأرض وأرجائها، وهو ما نشاهده ونراه بالحس والعيان في كل حدب وصوب، وهذا ما يتطابق مع ما تنبّأ به رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «**تملأ الأرض ظلماً وجوراً، ثم يخرج رجل من عترتي، يملك سبعاً أو تسعاً، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً**»(١)، فكما أنّ الأرض مُلئت وستُملأ بالجور والفساد والظلم، لا بدّ لها من يوم تُملأ فيه عدلاً وقسطاً، على يد الإمام المهديّ المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وقضية الإمام المهدي (عليه السلام) هي قضية سننيّة ، فكما أننا نرى الطبيعة محكومة لقوانين فيزيائية وكيميائية صارمة، وهذه القوانين لا تتبدل ولا تتحول، فالحديد يتمدد بالحرارة، والماء يغلي عند درجة مئة مئوية، في كل زمان ومكان منذ آدم وليومنا هذا، فكذلك المجتمع الإنساني محكوم لسنن اجتماعية تاريخية لا تتبدل ولا تتحول. يقول تعالى: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾.

وعملية التغيير في المجتمع الإنساني بأبعادها المتنوعة غير خارجة عن هذه السنن الإلهية الكريمة، وغير خارجة عن دائرة الفعل الإنساني كذلك. ولهذا يقول عزَّ من قائل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ**

(١) سنن أبي داود، السجستاني: ج٤ ص٧١٢ ح٤٢٧٦؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٣ ص٢٨ ص٣٦ ص٧٠؛ المستدرك الحاكم: ج٤ ص٥٥٧؛ وانظر مجمع الزوائد: الهيثمي: ج٧ ص ٣١٤، وقال فيه: «رواه الترمذي وغيره باختصار، رواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار، ورجالهما ثقات»؛ وانظر: المصنف: الصنعاني: ج١١ ص٣٧٢- ٣٧٣.

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فسنّة التغيير الإلهية مرتبطة بالتغيير الإنساني ذاته.

وقضية الإمام المهدي عليه السلام باعتبارها أكبر دعوة تغييرية في التاريخ خاضعة لهذه السنن المرتبطة بالفعل الخارجي والشروط الموضوعية.